

(الأكل) (أمبو) بدلا من (ميه) و(ب) بدلا من (عيش)
متلا وقد سمعت ابني في تلك المرحلة يقول (مكّن) بدلا
من (مطبخ).

ب - فئة اللغة المشككة:

وفيها ينظم كلامه كثيراً ، ويظل وقتاً طويلاً حتى يصبر
كلامه مثل الكبار .

ولاشك أن الطفل في تلك المرحلة يحروف كثيراً من الكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية .
فيقول مثلاً (ستينه) مكان (سكتينه) و(تتاب) مكان (كتاب) .

وقد لاحظت أن ابني في أول هذه المرحلة - يميل إلى قلب بعض الكلمات فيقول (تعبل) مكان (تعلب) ...

وبعض الأصوات اللغوية قد يتحقق على الطفل ، أو يظل صعب النطق لا يتنبه إلا في مرحلة متأخرة كصوت الإاء أو السنن في بعض الأحيان .

وكثيراً ما يكتفي الطفل ببعض مقاطع الكلمة ، عن نطقها كاملة فقد سمعت ابني يقول (كب) مكان (كلب) و(بابه) مكان (كاباه) ونحوها ..

ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يميز الكلام الذي يوجه إليه بحب وعطف من ذلك الذي يوجه إليه بحدة، وغضب، فسر من الأول وينفر من الثاني.

والطفل لا يتعلم الأصوات مفردة ، وإنما يتعلم الجاذب الصوتي للكلمات مرتبطة بالمعنى .

وعادة ما يدرك معاني الكلمات التي تلقى عليه قبل أن يستطيع نطقها بزمن طويل ، وهو يدرك المحسوسات قبل المعنويات .

وأخيراً يتعلم لغة جماعته بقدرتها الفائقة على تقليد ما يلقى عليه من قبل أمه وأبيه وأسرته والمحيطين به ،

لغة ، لجماعته أو لغيرها من الجماعات البشرية .

وهذا الصياغ مشترك بين جميع الأطفال ، ولا يُؤدي في أوله — غرضاً ولكنه يتطور بعد ذلك ، فيستخدمه الطفل في التعبير العام عن كل ما يهمه وبخاصة عندما يدرك من حوله أثره فيهم .

وهذه الأصوات تدرب عضلاته ، وجهازه الصوتي على الكلام فينتقل إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية (البأبة) :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصوات مثل أم - بب - تت - دد - الخ.

وتكون في أولها نشاطاً عضلياً خالصاً ، ثم تأخذ
أعضاء النطق عنده شيئاً فشيئاً في التدرب عليها ،
والتحكم فيها فيستطيع الطفل نطق الصوت الذي يريده .
ويأخذ الطفل — بعد ذلك — في تدريب عضلاته
الصوتية على النطق بهذه الأصوات التي يستمتع بها هو
ومن حوله .

والشائع أن أول ما ينطقه الطفل صوائت مفردة ، أو صوائت يسبق كلا منها صوامت مثل (لـ - رـ - تـ الخ) (وتعد الصوائت الشفوية التي يرمز إليها بـ p, b, m (بـ ، بـ ، مـ) من الصوامت الأولى التي ينطقها الطفل ، ان لم تكن أنها على الاطلاق» وفي هذه المرحلة ربما صدرت عن الطفل أصوات ليست من مجموع الأبعديات التي تستعملها جاعته مثل (P, v) عند طفل عربي مثلا ، يبد أنه ينطق عددا كبيرا من أصوات أبعديات قومه .

المحلـة الثالثـة (الـكلـام) :

تبدأ من حوالي نهاية السنة الأولى ، وتمتد سنوات طولية وغير خلاها يمر حلتين .

١ - فَتْهَةُ الْلُّغَةِ الصَّغِيرَةِ :

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيراً عن الأصل الذي يقلده ، كأنّ يقول الطفل المصري (م) بدلاً من

وينهي جوشات - كذلك - أن يكون للفرد - صغيراً أو كبيراً - أي أثر في التطور الصوتي فيقول : «ليس للفرد أي دخل في التطور الصوتي» وقد اعتمد في حكمه هنا على النتائج التي توصل إليها في بحث تبع فيه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التي تقيم في المنطقة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينة (بول) *Bulle* في مقاطعة قريبورج لبيان تأثير الفرد في اللغة ، وكانت تلك المنطقة مسؤولة تماماً عن المناطق الأخرى المجاورة لها .

وقد اكتشف جوشات فروقاً كبيرة في طريقة النطق بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة ، وما انتقل إلى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقاً صوتية بين أفراده تمثل الفروق التي وجدتها بين أفراد الجزء الأول . وكذلك كان الحال في الجزء الذي يليه ، والذي يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقاً مكانية بمعنى أن اللغة في جزء ما من الأقليم تختلف عنها في جزء آخر . بل إنها كانت فروقاً زمنية ، أي فروقاً بين جيل وجيل . وأن الاختلاف اللغوي بين أبناء جيلين مختلفين في جزء واحد أكثر مما بين أبناء جيل واحد ، في جزءين مختلفين .

وبين أن المقارنة بين لغتي الثين من الشيوخ - يتسم أحدهما بجزء من هذا الأقليم يختلف عن الجزء الذي يتسم إليه الآخر - ثبت تحقق التشابه في مخارج الحروف لديهما أكثر مما بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذي يتسم إليه وهذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام .

١) المعمرون :

وهم بين الستين والسبعين ، وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قدية كثيرة ما تبدو غريبة لسوادهم .

(27) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 34 - 54 ، د. وافي : علم اللغة ط 4 ص 110 - 155 ، د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 68 ، 69 وكثاراتوف : أصوات وأشارات ص 190 - 193 .

(28) جسبرسون اللغة بين الفرد والمجتمع ص 45 .

وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئاً فشيئاً . وللطفل قياسه اللغوي في التواحي الصوتية والتحوية ، والمعنوية ، ومن ذلك التذكير والتأنيث ، فقد يتسرّب إلى ذهنه أن المؤنث يكون بالباء - كما هو العادة الشائعة - . فطبق ذلك على بعض الكلمات التي لا تونث بالباء وفق قواعد اللغة الصحيحة ، فإذا أراد تأنيث (أخضر) مثلاً قال : (أخضرة) وأحمر قال (أحمرة) .

وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الأطفال الذين يتمتعون إلى جماعته الكلامية وإن كانت ثمة أخطاء عامة يشتراكون فيها جميعاً⁽²⁷⁾ .

وإذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهو لاخطائه أثر في أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد - بصفة عامة - صغاراً أو كباراً تأثير فيها ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون في نسبة التغير الصوتي إلى الأفراد . فيبني (جوشات) أن يكون للطفل أي أثر في التطور الصوتي للغة فهو يقول : «إن كل لغة تتبايناً تبايناً خاصاً بين جيل وجيل يمكن للتطور في أصواتها ، وبذلك يتضمن أبناء الجيل اللاحق من الراشدين - دون الأطفال - للتطور الجديد ، وليس الطفولة سوى مرحلة تقليل لغوي ولا أكثر . وعندما يخطي الطفل في نطق بعض الكلمات وليس ذلك بدء التطور في أصوات اللغة التي يتكلّمها كما يزعم بعض الباحثين . وذلك لأن طبيعة اللغة كافية بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد . ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لدى الطفل وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سنًا مناسبة ، أي عندما يتجاوز دور الطفولة»⁽²⁸⁾ .

2) المحدثون :

وهم دون الثلاثين ، وهؤلاء ينطقون الأفاظهم بطريقة حديثة .

3) المتوسطون :

وهم بين الثلاثين والستين ، وهؤلاء يكونون في نطقهم حداً أو سط بين المعمرين والمحدثين ، ولقد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القديمة إلى جانب الأصوات الحديثة دون أن يكون لهم في اختبار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كما لاحظ أنهم يتزمون في بعض الكلمات طريقة النطق الحديث ، وفي بعضها الآخر طريقة النطق القديم .

أما النساء فقد كن أكثر ميلاً لاتباع طريقة النطق الحديث ، وقد حدا هذا بجوشات أن يقرر أن دور المرأة في التطور الصوتي أكبر خطراً من دور الرجل .

وقد أثبتت جوشات أن الفرد ليس له أثر في التطور الصوتي ، بعد دراسة ما يبلغ خمسين لغة فردية لبناء هذه المنطق لم يتبين له من خلالها مثل هذا التأثير الفردي في تطور اللغة التي يتكلّمها أبناء هذه الجماعة اللغوية . وينسب جوشات التغير الصوتي إلى الجماعة لا إلى الأفراد فيقول أن التغير أمر حتمي طبيعي وليس أمراً خاصاً لارادة فرد متّميز أو غير متّميز ، ويعني أنه أمر حتمي طبيعي أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك لأن ينطق النطق الجديد شخص في مكان ما ثم يقلّد ويُنطّق في نفس الوقت شخص ثان في مكان ثان ، وثالث ورابع في مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلّدون وهكذا⁽²⁹⁾ .

ويتفق فندريس مع جوشات في هذه الوجهة التي تمنع أثر الفرد في الأصوات فيقول : «Sad شطرا طويلاً

(29) جسبرسون : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 ، 38 .

(30) فندريس : اللغة ص 69 .

(31) جسبرسون : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 - 44 .

(32) فندريس : اللغة ص 296 .

(33) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفيّة ص 94 .

من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتي إنما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن إلا تغيراً فردياً ، ثم عمّ ، وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس في وسع أي فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تبوا عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتي ، فلأنّجل أن بصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تقاء أنفسهم ، بل إن سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شيء ، فإن النطق الشاذ لا يجلب اتباعاً لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه»⁽³⁰⁾ .

ويرى جسبرسون أن تأثير الصوتي للأفراد غير مسلم به ، وأن البحث الذي أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد في التطور الصوتي ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لإثبات أثر الفرد في الأصوات⁽³¹⁾ .

ولعل الدافع إلى انكار أثر الفرد في التطور الصوتي هو الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس «إن العالم اللغوي لا يعرف إلى أي مدى يحدد دراسته وإلى أنه يبقى متّرداً بين الاعتبار الفردي والاعتبار الجنسي بأسره»⁽³²⁾ . ويقول الدكتور تمام (بالرغم من معركة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الإنسان أن يقول عند أي حد معين بدأ هذا التغير ، ولا نستطيع حتى أن ننقط إلى التغيرات التي تأخذ بمحاجها الآن على غير وعي منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرّر ما إذا كان تغير ما قد بدأ فردياً ثم اتسع مدى تطبيقه ، أو أنه بدأ على ألسنة ناس مختلفين ، ولا يستطيع نسبته إلى فرد معين منهم»⁽³³⁾ .

والحقيقة التي لا يمكن انكارها أن التطور الصوتي

وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسع من أولاد نظاء أهله – ولو كانوا مثله سناً – كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو اخوته ، وسائل من اتصل بهم من قبل⁽³⁴⁾ .

ومن الممكن أن يتذكر الفرد لفظاً من الألفاظ – كما يحدث في الجامع اللغوية – أو أن يرتكب خطأً في نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويُشيع ، وليس اشتراط شيع الابتكار الفردي في اللغة مغيراً للأمر الواقع الذي هو أن الفرد وليس الجماعة هو السبب في التغير اللغوي⁽³⁵⁾ .

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة إلا في محيط الأسرة.

وما يتذكره الفرد في مجال اللغة ، نقل الألفاظ إلى معانٍ جديدة ، ويشرط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهذا الانتقال على ما هو معروف في أسلوب المجاز . وقد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ إلى مهانٍ خاصة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو الطاغوت اسمًا لوالد مستبد ، (القط) لطفل مدلل في

يعد في بعض نواحٍ إلى الأفراد ، وإن لم يتعين الفرد الذي تابعه غيره ، فمن الحق الذي لا ريب فيه – كما يقول فندريس – أن كل فرد يدخل في اللغة جزءاً من التجديد خاصاً به»⁽³⁶⁾ .

ومن المسلم به «أنه لا يتكلّم شخصان بصورة واحدة لا تفترق ، واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتي»⁽³⁷⁾ و«أن الفرد كما يقول الدكتور ثام حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئاً فشيئاً عن نطق المجموع حتى يختلف عنه»⁽³⁸⁾ .

قد شك أن عملية التغيير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم حتى تعمم ، فالجانب الفردي ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتى لمن ينسب التغيير إلى الجماعة أن ينفيه مطلقاً⁽³⁹⁾ .

2 - أثر الفرد في المفردات والتراكيب :

أما أثر الفرد في المفردات والتراكيب فهو واقع لغوي يُعرف به الباحثون فالطفل يسمع مفردات جديدة ، وتعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة ، إن الصبي في المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا

(34) فندريس : اللغة ص 295 ، 296.

(35) د. ثام : اللغة بين المعيارية والوصفيية ص 92.

(36) نفس المرجع السابق ص 92.

(37) في العربية الفصحى أصوات تحتاج إلى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت الناف الذي تحول على لسان غير المتقفين بالعربية إلى (كاف) والذال تحولت في العامية إلى زاي أو دال وهكذا ، وبعض الطواهر اللغوية تؤدي إلى التطور الصوتي ، ظاهرة التفحيم أدت – مخالفة للفصحي – إلى نطق كلمة (دَرْب) : (ضَرْب) – في العامية – بتحويل (الذال إلى ضاد) .

(38) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 57 . وابنظر : جسيرسن – اللغة بين الفرد والمجتمع ص 53 – وقد اثبتت التجارب أن الأطفال ينتزعن بعض الألفاظ والصيغ ونحن نسمع منهم كثيراً يرتجلون كلمات مرکبة من حروف عدة.

انظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ط 3 ص 87 – 89 وأحمد الاسكتلندي : فقه اللغة ص 30.

(39) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال في اللغة العربية ، فالعربي الفصيح كان يخزع الألفاظاً ويشتّق أخرى أو يقيسها متبوعاً طرق التجديد في ذلك ، ويرى عن رؤية وأيه أنها كانتا يرتجلان الألفاظاً لم يسمعاها ولا سيما إليها . والباحث في العربية يعثر في بعض مصنفاتها على كلمات وصفتها على كلمات وصفتها على كلمات مصنوعة . وقد أورد السيوطني في المهر عددًا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاحتزاع والصيغة ، وقد روى في بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتطرفاً ..

وفي كتب النحو ما يرشدنا إلى اعتراضهم بالارتجال في أثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه إلى متقول ومتجل . وفي العامية كثير من الألفاظ التي لا أصل لها في اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية وهي ترجع إلى احتزاع الأفراد والجماعات ، وذكر الدكتور إبراهيم أنيس أنهم كانوا يقولون – على سبيل الاحتزاع – وهم طلبة مثل :

أحمد على معاہ) بدل (عال معاہ قلم أحمد) لئار شعور
السامعين خالفة العرف اللغوي .

ولذا يشترط في ابتكار الفرد عنصر الأفهام لدى
المجاعة اللغوية . اللهم إلا في لغة الطفل أو (رغائمه) فإنها
تفقد هذا المنصر . وكذلك محاولة ارسال بعض
الأصوات مجرد اللهو والموى ، وفيما عدا ذلك يجب أن
يتبع الفرد في كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة^(٤٠) .

الأسرة (شعبه) لطفل بغية أن يعيش ، وغير ذلك مما
يستعمل في نطاق محدود . وهو نوع من ابتكار المعاني
ونقل استعمالات الألفاظ .

والفرد — حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب —
مقييد بالعرف اللغوي المتعلق بالدلالة ، وقد أشرنا في
حديثنا عن الدلالة إلى أن خالفة الأساليب العربية يزيد
من صعوبة المعنى^(٤٠) ولو نطبقا — في العامة — (قلم

وهم عشر العقلمين . تفتحت سلفا قناء كبرى . في القنطرة

انظر : ابن جني : الخصائص 2 / 21 -- 28 ومواضع أخرى منها 3 / 298 . والسيوطى : المهر 1 / 52 - 56 - 63 - 67 ،
90 وغيرها . والأصفهانى : الأغاني 3 / 62 والمسعودي : وبروج الذهب 4 / 43 والاشموني 1 / 131 ، د. أنس : من أسرار
اللغة ط 3 ص 90 - 92 .

(40) جيرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 23 ، 43 .

آثار المجتمع في اللغة

بأن اللغات ترتبط بعقلية أصحابها ، فاللغات الراقية ترتبط بعقليات الأمم الراقية ، والعكس صحيح .

في العالم اللغوي الألماني فـ N. Finck انه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثاراً معبرة عن عقل الشعوب ، وأن اللغات ليست إلا تصويرات لا تقدم أمام عين العالم السيكولوجي أية حقيقة واقعية ملموسة ، وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة ، فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محض ، بـألا نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذي يخلق اللغة⁽³⁾ .

وقالوا : إن وجود الأقسام الاسمية تشير إلى عقلية (بدائية) كما في لغات البانتو⁽⁴⁾ .

والحقيقة أن ربط اللغة بالجنس ، وبالعقلية ، تختفي مسوغ له ، فليس في لون العينين ، أو البشرة ، أو شكل الجمجمة أي دليل على شكل أو طبيعة اللغة ، وحتى في حال المقارنة بين الزنجي والأبيض لا نجد أي دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقابل دماغ خاص يتبع تفكيرًا مختلفاً عن تفكيرنا⁽⁵⁾ .

وعلماء الأنثروبولوجيا يمكنهم عند العثور على جمام آدمية أن يحددو أنواعها ، المستطيل منها والمستدير ، ولكن لا يمكنهم معرفة لغات أصحابها⁽⁶⁾ لأن وجود الجمجمة بين أيدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئاً عن

1 - اللغة والجنس :

كتبت بعض البحوث في (علم اللغة العام) عن العلاقة بين اللغة والجنس ، فرأى بعض الباحثين أن اللغة تختلف من حيث بنيتها وتنظيمها ، وبماراتها للحياة والأحداث ، باختلاف المتكلمين بها ، من الشعوب ، حسب طبيعتهم الجسمية ، فلغات مجدهي الشعر تختلف عن لغات ملوك الشعر⁽¹⁾ ولغات مستطيلي الرؤوس غير لغات مستديري الرؤوس⁽²⁾ .

وقد استغل هذه النظيرية أصحاب المذاهب السياسية ، ودعاة الاستعمار والغزو فتحذروا عن طبيعة اللغات ، وفرقوا بين اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية والخامية ، وادعى الغرابة — وهم من أرباب اللغات الأولى كالألمان ، والطلبيان — أنهم شعوب راقية ، وأن متحدثي اللغات الأخرى شعوب متخلفة ، ينبغي أن يخضعوا لسيطرة الأرقى .

وارتبط بذلك الحديث عن طبيعة اللغات المختلفة ، فهي تعجز عن التعبير عن المعاني الكلية ، وينعدد فيها النظم ، وتتفقىء منها الحيوانية ، وهي لغات قاصرة عن التعبير عن متطلبات الحياة الراقية ، والأحداث العصرية ، ولا يمكن لها في أي وقت أن تتطور إلى الحد الذي وصلت إليه اللغات الأوربية الراقية .

وقد سرّى الاعتقاد — كذلك — بين بعض الباحثين

(1) فندريلس : اللغة ص 297.

(2) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 65.

(3) فندريلس : اللغة ص 299.

(4) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 14.

(5) فندريلس : اللغة ص 298.

(6) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 68.

بعقلية التكلمين بها ، وبنظمهم ، وبخضارتهم المادية⁽¹¹⁾ .

ولكن ليس من المؤكد أن الأسباب التي تؤثر على اللغة تحدث في العقلية آثاراً مماثلة⁽¹²⁾ .

والواقع ينافق هذا الربط ويعارضه ، فخريطة أوروبا اللغوية في العصر الحاضر تضم أحلاطاً من الأجناس .

ومع هذا فإن فرداً ينشأ لدى شعب غير شعبه يكتب لغته ، وإذا أراد تعلم لغة شعبه الأصلي احتاج إلى مران طويل ، وتدريب شاق شأنه في ذلك شأن أي أجنبي يريد تعلمها ، فالزنجي أو الياباني الذي يربى في فرنسا في ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها ، ولو أن طفلاً فرنسياً تربى في بيئة الزنجي أو الياباني لتتكلم لغة البيئة التي نشأ فيها⁽¹³⁾ .

وان بعض اللغات التي كتب لها الذبوع والانتشار ليؤكد بطلان هذا الربط فالإنجليزية قد انتشرت في مساحات واسعة من الأرض في قارات كثيرة أيام سيطرة الإنجليز على تلك الشعوب ، واستعمرواها فتكلم كثير منها اللغة الإنجليزية وأجادوها ، كأصحابها الأصليين ، وكذلك العربية بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة قد فرضت نفسها على شعوب كثيرة ، وأجادوها كأهلها ، دون اعتبار إلى الجنس أو اللون أو العقلية لدى هذه الشعوب المختلفة .

والحديث عن اللغات المختلفة والراقة الحديث غير موضوعي ، فاللغات التي تسم بـ «بيات» (بدائية) يمكن أن تحول إلى راقية لو انفسح أمامها المجال ، وأنفتح لها ظروف التغير تبعاً للتحولات الاجتماعية التي تمر بها الشعب التكلمة بها .

أنواع الترابط بين الكلمات والأفكار ، التي كانت تتكون فيها ، ولا عن الصور الكلامية التي كانت تنشأ في مراكزها المخية⁽¹⁴⁾ .

ولا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينفي الخلط بين الميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعياناً قابلة للنقل ، تعار وتتبادل⁽¹⁵⁾ .

ومن التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية ، أو العقلية وليدة اللغة ، لأن كليهما وليدة الظروف ، ونتاج الثقافة والمدنية⁽¹⁶⁾ .

ومن الصحيح أن نقول : إن اللغة صلة بالعقلية ، إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية ناتجاً لأسباب واحدة ، وأن تكون الميزات التي تميزها واحدة ، دون أن يترتب على ذلك صدور احدهما عن الأخرى⁽¹⁷⁾ .

واللغة — في بعض الأحيان — تستطيع أن تعدل من العقلية ، وتنظمها فعاذه وضع العقل في مكان بعينه دائماً يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال ، والتفكير الفرنسي ، أو الألماني ، أو الانجليزي خاص لغة إلى حد ما ، فإن اللغة إذا كان مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد التخوية سمحت لل فكرة بالظهور في وضوح تام ، وأتاحت لها حرية الحركة ، وعلى العكس من ذلك تخنق الفكرة من التضيق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة ، ولكن عقلية التكلمين تتصرف لتعتاد أي شكل من أشكال اللغة⁽¹⁸⁾ .

ومن الثابت أن بنية آية لغة من اللغات ذات علاقة

(7) فندرис : اللغة ص 376.

(8) فندرис : اللغة ص 298.

(9) فندرис : اللغة ص 298.

(9) نفس المرجع ص 299.

(10) نفسه ص 302.

(11) د. السعري : اللغة والمجتمع ص 65.

(12) فندريس : اللغة ص 300.

(13) انظر ص 8 وما أحلاه عليه من كلام فندريس في كتابه (اللغة).

وقد حكى بعض الباحثين ما حدث لبعض الطلبة المند الأمريكيين من امكان تعرفهم على المثل العليا الأفلاطونية ، مع خلو لغاتهم من الأسماء العامة التي تستعمل دون (مغيرة) ^(١٤) .

وفي امكان اللغات الفاشرة ، أو غيرها ، معالجة كافة العلوم بشرط أن تزود بالمفاهيم والمصطلحات الجديدة . فلغات الشعوب البدائية تملك اصطلاحات ثقافية قليلة ولكنها لا تقل من حيث تكيف نفسها لكافة المجالات (الحياتية) عن لغاتنا المتحضرة .

فاللغة الأرانية لا تملك مفاهيم مثل (الجبل - التل - النهر) وعلى ذلك تكون لهجة تدريس المغرافية أمراً صعباً جداً ، ولكن علينا لا ننسى أن فيها أسماء لكل جبل ، وحتى لأصغر التلول .

ومن السخف التكلم عن اللغات (الأفضل) و(الأسوأ) ، ان هذا شيء يقولنا : أيها أفضل شجرة التخيل أم شجرة الصنوبر؟ افريقيا أم أوروبا؟ .

فالناس كلهم سواسية ، بعض النظر عن الجنس والثقافة ، والعرق وبنفس الطريقة تتساوى كافة لغات المعمورة في قيمتها وحقوقها ^(١٥) .

2 - اللغة والمكان والزمان :

للسكان أثره في اللغة ، فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول ، وأراضي زراعية ومدن صناعية .

فلغة الصحراء خشنة الألفاظ ، غليظة الأصوات ، كما يتضح ذلك في لغة العرب الجاهلين ، فالعربي في الصحراء يجد أمامه الجو الحال من الفراغ الطبيعي ، الذي يحتاج معه إلى قوة عضلية ، حتى يتضح صوته ، ويصل

(14) د. السعريان : اللغة والمجتمع ص 71 بتصريف .

(15) كندراتوف : أصوات وأشارات ص 83 ، 84 .

(16) من سورة الحجرات الآية

(17) أبو علجم : أبو علي - العشيج : العشي .

(18) ليش : ليك .

إلى ما يريد من أماكن قد تكون بعيدة عنه . والبيئة التي يعيش فيها ، تشكل جسمه ، وعضلات نطقه ، بطريقة تجعلها مستعدة لازراج مثل تلك الأصوات ، على حين أن سكان المدن يملؤون إلى رقة الألفاظ ، والختفاض الأصوات ، ويتبخر ذلك من تأديي التي ^{عليها} من سماع أصوات الأعراب العالية حين قدموا عليه في المدينة ، فطالهم القرآن الكريم بعدم رفع أصواتهم (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ^(١٦) .

ويكفي أن نسمع - مثلاً - كلمة (افرنعوا) - بمعنى تفرقوا - وقول بعض العرب :
خالي عريف وأبو عليج
المطهان اللحم بالعشيج ^(١٧)

وقول بعضهم (ليش الله ليش) ^(١٨) .
فهي تعبر عن صخب الأصوات البدوية ، وهكذا نجد اللهجات المتعددة ، وتنافر الأصوات إلى جانب ما في بعضها من ضعف القواعد النحوية والصرفية ، والاشتقاقية .

وخيال الصحراء محدود بتلك البيئة ، فالوسائل التي يلجأ إليها البدوي لحمل الأسلوب لن تخرج عن مجده البيئي ، وما يوجد فيه من سماء ، وأرض ، ونبات ، وحيوان .

ويقول النابغة للنعمان بن المذر :
فانك كالليل الذي هو مدركك
وان خلت أن المتأتى عنك واسع
ويقول له كذلك :

كأنك شمس الملوك كواكب

إذا طلت لم يد منها كوكب

ويصف امرؤ القيس فسه فيقول:

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلود صخر حطه السيل من عل

ويقول :

فعادى عداء بين ثور ونجة

دراكا فلم ينفع باء فيغل

ولكن بعد أن تحضر العرب ، وسكنوا المدن لاحظنا

تغيراً في طرق التعبير ، وحسن الأصوات ، ونظام

القواعد ، فقلت اللهجات ، وبرزت الفوشية كلغة عامة

بين العرب ، انطمس معها معظم تلك اللهجات ، وسما

الخيال العربي ، وانطلق مع تقدم الأمة العربية ، على نحو

يمكن معرفته ، من ملاحظة سير اللغة ، وأدابها ، في

العصر الإسلامي وما تلاه ، وبخاصة في العصر العباسي ،

الذي زاد فيه اتصال العرب بأمم ذوات حضارة ،

واكتساب الأدباء والشعراء لكتير من ثقافات تلك

الشعوب .

ومع ذلك تظهر ملامح البيئة فيها .

فابن الرومي الذي يعيش في الأحياء الشعبية التي

يشاهد فيها صانع الرقاق يجعل ذلك مادة شعره في أبيات

هي :

ان أنس لا أنس خجازا مررت به
يدحرج الرقاقة مثل اللمع بالبصر

ما بين رؤيتها في كفة كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر

الا بمقدار ما تنداح دائرة
في الماء يلقى فيه بالحجر

وحينا يسأل : هل يستطيع أن يأتي بمثل ما أتي به

ابن المعتز في وصف القمر من قوله :

انظر إليه كزورق من فضة

قد أثقلته حمولة من عنبر

فيقول : ومحكم ، إنما يصف ماعون بيته ... !!

وقد تميزت العربية من أخواتها الساميّات
ـ كالآراميّة ، والعبرية ـ بانتظام القواعد وعنوانية
ـ الألفاظ ، وسهولة التراكيب ، لأنّها عاشت في بيئة أكثر
ـ مدنية من أخواتها⁽¹⁹⁾ .

وللزمان تأثيره في اللغة كذلك ، فالفرد يتأثر نطقه
حسب مراحل سنه المختلفة كما ذكرنا⁽²⁰⁾ .

وانتقال اللغة من جيل يترك أثره في أصوات اللغة ،
ومفرداتها ، ونظمها وتراكيبها .

فقد لاحظ جماعة من اللغويين أنّ أعضاء النطق
تختلف من جيل إلى آخر ، فهي عند الآباء ، تختلف عنها
عند الآباء ، وعند الآباء تختلف عن حالي عند الأجداد
وهكذا تتطور أعضاء النطق عند الجماعة الواحدة ، من
عصر إلى عصر ، وإن كان هذا التطور يسير ببطء لكنه
يؤثر في الفاظ اللغة ، وبخاصة في أصواتها .

ونحن نلاحظ أن بعض أصوات اللغة العربية قد تغيرت
على لسان العرب المعاصرين سواء في ذلك لسان المثقفين
بالعربية أو على المستوى الشعبي : فالجمجم العربية تنطق على
لسان بعض المذيعين حالية من التعطيش أو بتعطيش قليل
في مصر ، وأما على المستوى الشعبي فقد خلت نهايائهما من
التعطيش ، على حين أنّ السوريين يبالغون في تعطيشها ،
وقد غدت الثاء قريبة من السين ، والذال قريبة من الزاي
على لسان بعض المذيعين وغيرهم من المتحدثين
بالفصحى ، على حين اقلبت إليها على لسان العام ،
والصاد والسين والزاي قد اختلف نطقها في الحديث عنه
في القديم ، وناهيك بالانحراف الذي يسري على ألسنة

(19) انظر : د. واقي : علم اللغة ط 4 ص 233 - 236

(20) انظر ص 13 من هذا البحث .

النواحي السياسية ، فترد عبارات : (العالم الحر) . . . (عدم الانحياز) . . . (التحالف) . . . (الصداقة) . . . (المودة) وتفسر في ظل المفاهيم السياسية التي تراها الدول التي يجري بينها التعامل .

وقد نشأ عن هذا تغير مدلولات كثيرة من الألفاظ والتراكيب ولو درست معاناتها في القديم والحديث لاكتشفت فروق هائلة بين المراد قديماً ، وحديثاً حسب مصطلحات العصر ، وربما أثار هذا مادة خصبة لمعجمات تضم معاني جديدة لم تعرفها العربية من قبل .

ولنراجع معاهدة العبارات : (الظلم الاجتماعي) . . . (سيطرة القطاع) . . . (الخلية الثورية) . . . (الدفع الثوري) . . . (الحواجز الثورية للجماهير) . . . (الدكتاتورية الطبقية) . . . (دموية الصراع الطبقي) . . . (نضال الشعب) الخ .

وللحياة الاقتصادية طرائقها ، ونظمها التي تتخذ من اللغة أداة فعالة لها ، توجهها كما شاء في الأصوات والمفردات .

فالنواحي الاقتصادية كثيرة ، ومتشعبه ، والتعامل بين الأئم له وسائله ، ودعایاته والتعامل بين أفراد الأمة ، وجماعاتها له وسائله ودعایاته أيضاً .

فأسلوب البيع والشراء له مسالكه التي يلجأ إليها كل من البائع والمشتري وطرق عرض السلع ، والإعلان عنها يأخذ أساليب شتى ، وأسوق البيع والشراء تحوي دماء البائع والمشتري ، ولذا تبدو في المجال اللغوي للبيع والشراء اصطلاحات ، وألفاظ وطرائق لغوية تميز بها جماعات التجار على تعدد أنواعهم وسلعهم .

ونشاط أصحاب الحرف زراعية وصناعية وتجارية يرتبط بالمفاهيم اللغوية الجديدة التي تتمشى مع وصفهم في المجتمع ، فأساليب الزراعة ، والصناعة ، والتجار تجري حسب ميولهم ، وأهوائهم ، ومصالحهم ، وترتبط بالأوضاع الجديدة التي تعرض لهم .

ويكفي أن نعرف أن العمل ، والعمال زراعيين وصناعيين أصبح لهم بعد الثورة شرف الاتساب إلى

العوام لأصوات القاف والطاء ، والطاء والضاد وغيرها مما حدث فيه خلط أو ترقق .

وماذا نقول عن فقدان الإعراب في العاميات ، وعن تقصير الحركات الطويلة أو حذفها ، واطالة الحركات القصيرة ، أو خلق حركات ما ازل الله بها من سلطان .
وانظر مثلاً إلى قول المصريين العوام : جم - جه -
بكام؟ معاك؟

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يدخله الأدباء والعلماء من ألفاظ وتراث يكتب كانت قدية فيحيونها ، أو مستحدثة يبتكرنها ، أو منقولة من اللغات الأخرى للحاجة إليها في ابراز المعنى ، أو في تسمية المستحدثات الصناعية ، أو غير ذلك من الأغراض .

3 - اللغة والنظم الاجتماعية :

تأثر اللغة بالأنظمة الاجتماعية التي تكون عليها الأمة ، فتحمل سمات المجتمع في النواحي السياسية ، والاقتصادية ، والدين ، فالمجتمع يطبع خواصه في هذه النواحي على لغته ، فالكلمات ، والتعبيرات تتشهي مع شكل النظام السياسي ، والاقتصادي والديني وغيرها من النظم الاجتماعية .

ففي مجال السياسة نلاحظ اختلاف نظم الأمم ، فهناك النظام الديمقراطي أو النظام القطاعي ، أو النظام الشيعي ، ولكل طريقة التي تظهر في أساليب لغته ، فلغة الانتخاب ، والمراسيم الحكومية ، وال المجالس النيابية تتجلى فيها طريقة النظام الذي تسير عليه الدولة .

وعندما يتغير الشكل السياسي تتأثر اللغة به ، فلو درسنا الألفاظ المستعملة في مجال السياسة الطبقية قبل الثورة ، وما استعمل بعد الثورة لوجدنا اختلافاً واضحاً ، في كل من الفترتين ، فالنظرية إلى الفرد قد اختلفت وأخذ لفظ (السيد) مفهوماً جديداً في الاستعمال .

ونلاحظ في أسلوب المعاهدات والمعاملات بين الدول طابع الصورة التي تكون عليها تلك الشعوب ، من

الأخرى لوجدنا الطقوس الدينية التي تسلك مسالكها ، فلاتزال الكنيسة تستخدم التعبير القبطية التي يرددوها بعضهم دون فهم⁽²²⁾ .

ولاشك أن كتابات المسيحيين باللغة العربية تحول الأسلوب ، ومفهوم الألفاظ العربية ، حسب الاتجاهات التي يلتجأون إليها ، فلهم عرفهم في الاستعمالات اللغوية ويعkin ملاحظة ذلك من أساليب كتاباتهم الدينية ، وذلك أيضاً يغير من الفاظ اللغة ، وتراكيبها ومفاهيمها فيخضعها لما يريدون .

4 - اللغة والطبقات الاجتماعية :

يضم كل مجتمع عناصر بشرية مختلفة ، تعيش في المدن ، والقري ، وفيها الزراع والصناع والارستقراطيون ، والفقراء ومتوسط الحال وفيها الأمراء والعلماء والمنتفعون ، كالطبيب والمهندس والمدرس ، وعالم الدين ، ورجل القانون ، والأديب وغيرهم .

ولكل من هذه الطوائف خصائصها ، في نشأتها ، وطريقة حياتها ، وعاداتها وتقاليدها ، ومستواها الاجتماعي ، ولذا تستخدم اللغة استخداماً مستمراً من البيئة والأعمال التي تراوحتها .

وعندها هذه اللهجات ذوات الطابع التميزة بـ(اللهجات الطائفية) أو (الطبقية) أو (الاجتماعية) ، كما يسمى علماء اللغة⁽²³⁾ .

فالمشتغلون بالزراعة لهم لهجتهم الخاصة ، المستمدّة من بيئتهم وعملهم ، وما يتصل به من آلات ، وأدوات .

في (التوائية) – وهي لغة شعب زراعي – خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب ، ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات لأن كلها منها تقال عن شيءٍ خاص . بالأوز والخيل والبقر والحيوان الداجن مما عدا ما سبق

أعماهم ، وتتحول معاني الكلمات (العمل – العامل – الفلاح) من الصفة التي كانت تلاحقها في الماضي بسخرية واستهزاء إلى شرف المعنى واحترامه⁽²¹⁾ .

وللدين كذلك أثره الفعال في اللغة ، فال المجتمع في طقوسه الدينية ، ومشاعره يسلك مسلكاً لغويَا ذا طابع خاص ، ولغة الدين لها ألفاظها ، وتركيبها ، وطرائقها التعبيرية ، ولتنظر إلى ألفاظ الأذان ، والصلوة ، والخطب الدينية ، وطرائق المذايحة النبوية ، وأساليب القرآن الكريم الذي يلجم إلى طرق خاصة في الاقناع والتوجيه ، ولا ريب أن أداء هذه المراسيم الدينية ، وقراءة النصوص ، والأدعية المأثورة لها نظمها الصوتية ، التي تحرك المشاعر ، والوجدان .

وهناك تعبيرات شائعة لدى الناس يستمدونها من أيامهم بحالاتهم ، ويحيطونها بها لات الإكبار الذي يبعث من الاحساس الديني كأساليب القسم وتعويذ الأطفال بآيات الكتاب الكريم ، والأساليب الشعيبة المستمدّة من الدين مثل (اسم الله عليك – باسم النبي حرسك) . ولو تبع الباحث اللغوي تاريخ الألفاظ ، والتعبيرات الدينية المأثورة قد يعا حي العصر الحديث ، لأمكنه أن يقف على تاريخ التطور اللغوي الذي يبعث من مشاعر دينية ، لاسيما ونحن نعلم أثر الدين في النفوس .

ولو درس الأسلوب القرآني دراسة فاحصة ، لأمكن ادراك كثير من الاتجاهات ، والمسالك اللغوية التي يتحجّها .

ونلمس في لغة الأساليب الدينية ، ميلاً إلى الإيقاعات الصوتية كالسجع ، والفوائل وتابع الأصوات ، وتنغيم الكلام .

ولو تركنا الدين الإسلامي إلى غيره من الأديان

(21) د. السعراي : اللغة والمجتمع ص 74 – 94 بتفصيل أكثر.

(22) فندريس : اللغة 314 – 315 .

(23) د. السعراي : اللغة والمجتمع ص 60 ، د. وافي : اللغة والمجتمع ص 148 .

الاقتصادية ، وطرق معيشتها ونظمها الاجتماعي . يقول فندرис - عن اللهجات الاستقرطاطية الفرنسية - (في كل العهود التي كونت فيها الاستقرطاطية طقة مغلقة ، تحيى حياة الصالونات وتعتز بجمال اللغة أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية ، وهم وإن استووا في العقل مع غيرهم ظلت لهم عبارتهم ، وحمل أشهئ إلى النفس) ⁽²⁶⁾ .

وللطبقات الاستقرطاطية في مصر لهجاتها الخاصة ، ولكنها تقوم - أحياناً - على تشويه بعض أصوات اللغة العامة ، واستعمال كلمات وترابيب أجنبية لاعتقادها أن ذلك علامة الرقي ، والمدن ⁽²⁷⁾ . والطبقات الفقيرة والوسطى أكثر استقراراً أو اعتدلاً في استعمال اللغة .

وقد يعرض لفرد أو أكثر من الطبقات الدنيا ثراء فجائي ينطلقهم إلى مستوى مادي أعلى ، فيحاولون بمحاراة الطبقة الراقية ، وإذا كانوا يستطيعون ذلك في المسكن والملابس ، وغيرها من مظاهر الحياة المادية ، فمن العسير عليهم بمحاراة تلك الطبقة في هاجتها ، فإن صعوبة التقليد الكامل يجعلهم عرضة للخطأ ، وتعود بهم إلى طبقتهم الأولى ⁽²⁸⁾ .

وللطبقات الخارجية على نظام المجتمع - كاللصوص ، والجرمين ، والأشقياء - لهجات تستخدم طرائق معينة في استعمال كلمات اللغة العامة ، بنقلها إلى معانٍ مجازية أو استعارتها لدلائل بعيدة عن مفهومها الأصلي ، أو خلق وابتکار مفردات وعبارات جديدة ، لفاهيم يصطدرون عليها ، وربما يلجأوا إليها لاحفاء جرائمهم ، وأوضاعهم الشاذة ، «في أمريكا» - مثلاً - يسمى . اللصوص

وشعر الإنسان - وفيها دلالة على (المبق) أو (الأبلق) عدد من الكلمات يقدر ما يوجد فيها من الفصائل الحيوانية ، وهذا يستلزم قوماً اخلاقيين في تربية الحيوان ⁽²⁴⁾ . وللزراعة - في مصر - لهجاتهم الخاصة التي تختلف باختلاف المناطق التي يعيشون فيها .

ويبدو ذلك في مظاهر حياتهم ، وسلوكهم اللغوي ، ولعل في هذا المثل المستمد من بيتهما ما يؤكّد هذه الحقيقة ، في بعض المناطق يقولون : (أردب ما هو لك ما تحضر كيله تغفر دنقك ويلزمك شيله) .

ولكل حرقه أو صناعة ألفاظها الخاصة ، فالحدادين ، والنجارين ، والبحارة وغيرهم من الصناع ذوي الحرف لهجات متعددة في كلماتها ، وعباراتها . وتشتمل لهجات هؤلاء وأوائل على ألفاظ من اللغة العامة ، أو من لغات قديمة أو أجنبية .

في مجال الزراعة تختلف العامية المصرية - من اللغة القبطية - بأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية ، وفي العامية العراقية كثير من الكلمات البabilية ، والأشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

وفي مجال الصناعة كلمات متوارثة ، أو منقولة من لغات أجنبية وبخاصة بعد التطور الصناعي العالمي ، وقد دخل اللغة العربية كثيراً من الألفاظ الانجليزية ، والإيطالية والألمانية ، واليونانية ، مما يتصل بالمهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية ⁽²⁵⁾ .

وللطبقات الاستقرطاطية ، والفقيرة ، والوسطى ، لهجاتها التي تبئ عن مكانها الاجتماعية ، وأوضاعها

(24) فندريس : اللغة ص 286.

(25) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 105 - 108 بتصريف . وانظر : اللغة ص 283 وما بعدها .

(26) فندريس : اللغة ص 287.

(27) انظر إلى استعراهم : انارب مكان حالم - السير مكان الصبر - زالم مكان شكرأ ونحو ذلك .

(28) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 50.

وحلّة (القاضي) فهذا يستعملان في تسيب حيّلاتها أو في تحريّرها لغة بعيدة جداً عن اللغة الجاربة^(٣٣). ولغة المحاكم - بعامة - من هذا القبيل فكل مصطلح فيها اخذه له دلالة نهائية على رجال المحاكم أن يحفظوها وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئاً منها^(٣٤).

وللأطباء لهجة يستعملونها عندما يحررون نشرة طيبة ، وللعلماء لهجة عندما يعالجون مادة علمهم .

ويسمى علماء اللغة هذه اللهجات باسم اللهجات الفنية ، ففي كل فن علمي تستخدم كلمات اللغة العادية في معنى خاص ، كما يفعل علماء الطبيعة ، حين يتكلمون عن الكتلة أو (السرعة) أو (القوية) وأحياناً تختلط كلمات خاصة .

«واللغات الفنية تدين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء أو أفكار لا أسماء لها ، في الاستعمال الجاري ، ولكنها أيضاً ترجع إلى الحاجة للدلالة (بصورة علمية) أي بمصطلح دقيق يرفع كل لبس على أشياء مما تعبّر عنه اللغة العادية تعبيراً جيداً»^(٣٥).

ولرجال الأدب من شراء ، وقصاصن لهجة ذات خصائص ، والأديب في حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد في ذكائه ، وحساباته من عناصر خاصة ، ومن أمثلة اللهجات الأدبية لغة الملحمة اليونانية وفي الهند لغات أدبية على أساس ما من اللهجات^(٣٦).

وللصحافة طجتها الخاصة ، فالصحف الشعبية في فرنسا (لا تكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصبغة

(الجواهر) باسم (الجليد) والجواهر المسروقة (الجليد الساخن)»^(٢٩) :

ولذا تسمى لهجتهم بـ(اللهجة السرية) أو (الكلام السري)^(٣٠).

وقد فطن الجاحظ إلى همجات الطبقات الدنيا في أيامه فهو يعرض للهجة المتسولين ، والمحталين ، ولا سيما جاء في كتاب البخلاء من هذا الباب كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تخاف حياة خاصة ، وهم اللصوص ، وقد كتب في الموضوع رسالة أسمها كتاب اللصوص ، وجاء ذكر الكتاب في مظان عدة^(٣١).

ومن أمثلة تلك اللهجات الخاصة القصيدة الطويلة التي كتبها في القرن الرابع الهجري الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجي البنيوي مسرور بن مهلهل ، واشتهرت باسم القصيدة السياسية ، واختار منها أبو منصور الشعالي قدراً لا يأس به وشرح المصطلحات الخاصة بالمتسللين^(٣٢).

وللعلماء والمثقفين - على اختلاف طبقاتهم ومناجي تعليمهم - من أطباء ومهندسين ومدرسين وعلماء وكتاب ، أنواع من اللهجات تتفق مع مستواهم الثقافي والعلمي .

وبين هجة التكلم نوع تعليمه ، ووسطه الثقافي ، فالقانونيون لهم لهجتهم الخاصة ، وحيثياتهم التي يبنون عليها كتاباتهم وأحكامهم^(٣٣) ومثال ذلك حالة (المحضر)

(29) نفسه ص 61.

(30) فندرس : اللغة ص 314 ، 316 ، 320.

(31) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 112.

(32) التعالي بيتمة الدهر ط 1353 هـ - 1934 م ، ج 3 ، ص 332 ، 333.

ود. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 112 - 114.

(33) فندرس : اللغة ص 314.

(34) نفسه ص 315.

(35) نفسه ص 315.

(36) نفسه ص 340.

كما أن طريقة الأداء الصوتي مختلفة بين الريف والحضر، بشّئ الطبقات ، – ويعنـ من خلال الاتجاه الصوتي التعرـ على طبقة المتكلـ الاجتماعية .

«والعامية الخاصة المستعملة في الأطراف الباريسية تختوي على بعض الخصائص الصوتية التي تكفي للتعرف ببطاقة المتكلم الاجتماعية»⁽³⁸⁾.

وفي العامة الخاصة يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات في صورة مختزلة ، لأنه يخاطب عددا مخصوصا من المتكلمين كلهم بمهد الذهن لفهمه ، وكلهم تفاهم معه ، مقدما ، ومن ثم يجيء هذا العدد الضخم من حالات الحذف ، والاسقاط ، والتبسيط ، وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التي تجعل العامة الخاصة لا يفهمها إلا العارفون^(٩٥) .

ولذلك أمثلة كثيرة فكلمة (ولد) ينطقتها بعض المصريين كاملة الأصوات ، هكذا ، وبعضهم (ول)
وبعضهم (واد) وعلى هذا يختلفون في ندائها (ياولد—
ياوول — يواد).

وغني عن البيان أن الاختصار في استعمال أصوات الكلمات يتم اعتماده على فهم أرباب الطبقة التي منها التكلم.

2) تسيير كلمات من اللغة العامة ، وستعملها استعمالا مجازيا .

فالكلمات العامة (مشغل - عمل - صنعة - تصنيف - عملية) تتحذ بالضرورة معنىً خاصاً في أفواه الذين يستعملونها وفقاً لنوع المهنة التي تستخدم فيها هذه الألفاظ ، ظاهرة التخصص المعنوي تلك هي أساس العامة الخاصة (٤٠)

الأدية ان قليلاً وان كثيراً على حين أن الصحف الكبيرة
تستخدم اللغة التي يستعملها خير كتابنا^(٦).

و معظم الصحف وال مجلات المصرية - الآن - وان
اصطفت العربية الفصحى صورة فانها تختلفها مضمونا
بادخالها كثيرا من الأنماط والتراكيب الغربية عليها وهي
 بذلك - لها هجتها الخاصة التي تناطـب الجماهـير
 الشعـبية .

ولكل من الرجال والنساء لهجة خاصة ، في المجتمعات التي تفرق بين الجنسين ، وتعزل أحدهما عن الآخر . وكلما ازدادت البعد ، والاتصال بين الجنسين أدى ذلك إلى وضوح الفروق بين لهجة كل منها .

أما في المجتمعات التي تخف فيها قيود الانفصال بين الرجل والمرأة فإن اللهجة تتقارب بينها ، ولا يكون لها مظاهر إلا في اختلاف يسير في بعض الأصوات والمفردات والتراكيب كما يشاهد في معظم مناطق مصر الحديثة . وهذه اللهجات الطبقية خصائص عامة ، تشترك فيها جميعا ، فهي :

١) تشوّه أصوات بعض الكلمات ، وقوانيـنـها الـصـرـفـيـة ، فـلـكـلـ مـنـهـ اـتـجـاهـ صـوـتـيـ فيـ نـطـقـ الكلـمـاتـ .
فـقـدـ يـقـعـ لـلـعـامـيـةـ الـخـاصـةـ أـنـ تـبـعـ بـعـضـ عـادـاتـ فيـ النـطـقـ تـسـاعـدـ عـلـىـ تمـيـزـهاـ .

ومن أمثلة ذلك نطق الطبقات الريفية، والمدنية للأفعال (قال - جاء - يقدر) فينطقها بعض الريفين (جال - ايجه - يقدر) وفي المدن والقرى المتأثرة بها (آل - حه - باد).

وهذا في الحالتين تشویه لأصوات ، وبنية بعض الكلمات .

نفہ ص 345 ، 346 (37)

317 نفہ ص (38)

320 : 319 نفسه ص (39)

318 - 317 نفہ ص (40)

واللهجات الخاصة لا يفصل بعضها عن بعض ، انفصلا تماما فالطوائف الاجتماعية صلات تقتضيها المصالح التي تجمعهم فـ «تنوع اللغات (اللهجات) يرجع إلى تعدد الروابط الاجتماعية ، ولما كان من النادر أن يعيش فرد مخصوصا في مجموعة اجتماعية واحدة ، كان من النادر أيضا أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة ، إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ، ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها»^(٤٤) .

ولا تكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة اطلاقا ، ومع هذا فإن لقاء الأسر المتركة يؤدي إلى الوحدة اللغوية بينهما ، وقد يعيش أخوان معا ، وألأحدهما منه تختلف عن منه الآخر ، فتحيل لهجة كل منها إلى طائفته التي يتسمى إليها ، وتذهب عوامل الفرق بين لسانيهما إلا أنها يتغلبان عليها ، بلقائهما اليومي ، ولو أن أحدهما انفصل عن الآخر في حياته ، أو أدى حدث ما إلى التفريق بينهما فقد يصبح لكل منها لهجة تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى^(٤٥) .

فاللهجات الطائفية تتدخل فيما بينها لعوامل الاتصال القائمة بين أصحابها فإذا قدر لاحدي اللهجات أن تفصل عن الأخرى – لعوامل تدعو إلى ذلك فإن هذه اللهجة تصبح بعيدة عن أخواتها (ولذلك كانت في فرنسا لهجة الطبقات الدنيا من العمال واللهجات السريعة لمجتمعات المتصوفين ، والرهبان ، وهجات المحاربين ، واللصوص ، ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذي اشتبت عنه ، وبعدها عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية ، وكذلك الشأن في الجلترا ، فلهجات اللصوص . وقطع الطريق ، والمحاربين الانجليز من أشد اللهجات بعيدا عن اللغة الأصلية ، وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية)^(٤٦) .

والاستعارات ، والتقلل في العامية الخاصة تبل بسرعة ، وتحتاج إلى كثرة التجديد ، لأن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التي تفصل بين العامية الخاصة ، واللغة المشتركة ، والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ، فلا يدهشنا إذا أن تستملك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى»^(٤١) .

3) تستمد كلمات من لغات أجنبية ، والمواد بالأجنبية كل ما ليس من اللغة المشتركة فيدخل في ذلك ما تنقله من اللهجات الخاصة الأخرى ، ومن كل اللهجات المتفرعة من اللغة المشتركة ، فضلا عن اللغات الأجنبية التي تتكلمها الأقطار المجاورة (فالعامية الفرنسية على وجه العموم تحتوي على كلمات أجنبية قليلة العدد : عربية ، والمانية) وغيرها^(٤٢) .

وفي اللهجات الخاصة المصرية ألفاظ مستمددة من لغات أجنبية حسب الطبقة أو الحرفية التي تتطلبها .

4) قد تأخذ اللهجات الخاصة من الكتب وهو أمر فردي في غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التي تدخل في تكوين العامية الخاصة ، ويزدكون أن فرجليوس مارو التحوي الذي عاش – على ما يظهر – في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع لغة خاصة ، ظلت شائعة الاستعمال زمنا طويلا بين تلامذة المدارس الإيرلندية ، وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية ، بأنواع من تضييف المقاطع ، أو نبرها ، أو نقلها ، وبمضي الزمن تحورت ، وتمحضت عن لغة أخرى أمشاج سميت (لغة الشعراء) وهي عامية خاصة احتللت فيها – على غير قاعدة – كلمات مستعارة . من اللاتينية ، والاغريقية ، والعبرية ، وكلمات أهلية أحدها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة^(٤٣) .

(41) نفسه ص 317 . 318 .

(42) نفسه ص 318 .

(43) نفسه ص 319 – 321 .

(44) نفسه ص 306 . 307 .

(45) نفسه ص 307 .

(46) د. رافي : اللغة والمجتمع ص 148 .